المبحث الثاني

الاعجاز في البلاغة والبيان

اعتبر الجاحظ رائدا في اكتشاف ما يسمى بفكرة(نظم القرآن)وقد ألف كتابا بهذا العنوان الا أنه فقد منذ القدم وذكره الجرجاني وأشار اليه أيضا، ويعد الجاحظ مؤسس البلاغة العربية حيث أرد لها كتابه(البيان والتبيين)ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته وملاحظات معاصريه، وتعمق وراء عصره. اضافة الى ما بثه في كتابه(الحيوان)وبما ينبيء بأنه كان ينظر بعمق الى ما يشيع في جو آيات القرآن من تأملات بعيدة المدى، وايحاءات عظيمة.

ومن أبرز مزايا دراسته للأسلوب القرآني ما يلي:

أ. أن الجاحظ كان ينظر للاسلوب القرآني نظرة عقلية مجردة تتأثر بذوقه واحساسه الخاص، فهي نظرة ذهنية فنية في أساسها.
ب. لم تكون تلك النظرة للأسلوب القرآني قاعدة عامة تندرج تحتها تلك اللمحات الفنية، وتنبض في نطاقها كدليل على صحتها، بمعنى أنها كانت تفتقد الوحدة العضوية بين أجزائها المتعددة ، فهي شذرات منتثرة من غير ترابط واتساق.
ت. نظر للأسلوب القرآني نظرة جدية باعتبار النظم والتركيب فتحت الباب لدراسات على جانب كبير من الأهمية في أسلوب القرآن، فهي وان كانت نظرات جزئية في آية دون أخرى الا أنها ذات خطر وأهمية.
ث. لم تكن الدلالات البلاغية في دراساته القرآنية مقصودة لذاتها لتكون نظرية عامة، وانما كانت انسيابا تأثريا يفيض في بعض المواقف دون بعض.

ومما هو جدير بالذكر أن الجاحظ أول من نبه بوضوح الى ضرورة استعمال الألفاظ استعمالا دقيقا كما يستعملها القرآن، فلمح الفرق في استعمال القرآن لكلمتي(المطر والغيث)، فالأولى يستعملها في العذاب، والثانية في مقام الرحمة والانعام.

وكان يكشف عن الدلالات الدقيقة للآيات، مشيرا الى ما فيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات ومجازات يقول في قوله تعالى:(طلعها كأنه رؤوس الشياطين)، ان الناس لم يروا صورا للشيطان قط، ولكن الله تعالى جعل في طباع الأمم استقباح جميع صور الشياطين وكراهته، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك، ولذا رجع بالايحاش والتنفير والاخافة والتقريع الى ما قد جعله في طباع الأولين والآخرين، وكل هذا وذاك يوحي بالخوف والرعب، وذكر أن هذا جار على وفق أساليب العرب كقولهم:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة حمر كأنياب أغوال

ولا أحد رأى الغول ولا أنيابه.

٢. جاء من بعده تلميذه ابن قتيبة فوضع كتابه(تأويل مشكل القرآن)ويظهر فيه ابن قتيبة متأثرا بأستاذه الجاحظ في وقفاته البيانية التي تجلي سر الاعجاز في بلاغة القرآن، فقد كان

يبين معنى الآيات ويكشف عن دلالاتها من خلال المجاز والاستعارة والحذف والاختصار والتكرار والزيادة والكناية وغير ذلك من الوجوه البلاغية، ويتبين من خلال دراسته ما يأتي:

أ. تأكيد أمر الاعجاز بالتركيب البلاغي، وضم الألفاظ بعضها الى بعض، لكن لم يشر الى ما وراء هذا النظم.
ب. الايقاع الداخلي للآيات، أو النظم الموسيقي في القرآن، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق وغير ذلك من المتقابل بين صفات ومخارج الحروف.
ت. الأثر النفسي الذي يتركه تأليف الآيات في القاريء والسامع.

لكن ابن قتيبة كالجاحظ وقف عند الأمثلة الجزئية دون الربط بينها، فهو عندما يتحدث عن الاستعارة ـ مثلا ـ فانه شغله الشاغل هو الكشف عن الاستعارة، وتأكيد مفهومها الذي حدده الأسلوب، وهو يجمع الآيات التي تتشابه فيها الاستعارات ليؤكد هذه بتلك، ولم يشغل بما ينبض به التعبير من دلالة خفية.

ويمكن القول أن ابن قتيبة واستاذه الجاحظ قد شكلا حلقة متقدمة مهمة في مجال الدراسات البيانية حول اعجاز القرآن.

١. ابو الحسن الرماني ورسالته(النكت في اعجاز القرآن):قدم دراسته هذه بصورة فنية عميقة تتعلق باعجاز الأسلوب القرآني وبالبلاغة كفن من فنون القول، وهو يعرض المعنى الحقيقي للآيات ليبين الدلالة البلاغية ثم يشرحه شرحا فنيا يبين فيه اللمحة الفنية والنفسية، ثم يكشف عن المعنى الثاني الذي وراء ذلك، فكانت دراسته تتوخى التأثير النفسي والوجداني.
وقد وجه اهتمامه نحو البلاغة في القرآن التي يرى أنها أبرز وجوه الاعجاز، فيفصل القول فيها، فيذكر أن البلاغة على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة أدنى طبقة، فما كان في أعلى طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، ثم يسترسل في تفصيل أبواب البلاغة التي حصرها في عشرة أبواب:
الايجاز والتشبيه، والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان.

لقد كشفت رسالته كثيرا من ألوان الجمال في التعبير القرآني، وكشف عن روعة الأداء والتناسق فيما بين اللفظ والمعنى، وتعمقت في مخاطبة القرآن للغرائز والشعور، وتصويره لخلجات النفس الانسانية، وما وراء تلك الصور البلاغية في القرآن من اثارة للحس، ورسم للعواطف، وتشخيص للمعنى الذهني، فكانت دراسته الفنية عميقة تتعلق باعجاز الأسلوب القرآني، وبالبلاغة كفن من فنون القول.

أمثلة من دراسته البلاغية:

قال تعالى:(فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)وهنا استعارة وحقيقتها أجاعها الله وأخافها ، والاستعارة هنا أبلغ لدلالتها على استمرار ذلك كاستمرار لباس الجلد وما أسبهه، وانما قال ذاقوه ، لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء، فهم في الاستمرار كتلك الشدة في مذاقه.

وقال تعالى:(فاصدع بما تؤمر)، قال الرماني"حقيقته فبلغ بما تؤمر، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع".